لغرض هذه الدراسة التاريخية للسودان فانه يشمل كل الاراضي التي تقع جنوبي الشلال الاول عند مدينة أسوان اذ كانت كل الحضارات والدول التي تعاقبت على الحكم في مصر تقف عند اسوان وتنظر الى الاراضي الجنوبية على انها خارجة عنها ، ومع ذلك فان تاريخ السودان في مختلف عصوره وعهوده يتأثر بالحضارات والدول التي قامت في مصر وكل تغيير يحدث هناك يكون له أثره على اقاليم السودان . ولا غرابة في ذلك لأن اتصال سكان الاراضي الجنوبية بمصر بدأ منذ عهد الاسرات الاولى لحضارة قدماء المصريين لدوافع يرد ذكرها عند سرد تاريخ السودان القديم . ومن المعلومات البسيطة التي كشفت عنها الآثار يتضح لنا انه قامت حضارات في وادي النيل جنوبي الشلال الاول منذ اقدم العصور التاريخية . غير ان هذه الحفريات لم تمدنا بتفاصيل وافية لنجعل من تاريخنا قصة متصلة الحلقات ولذلك عمد الاثريون على تقسيم تلك الحضارات الى مجموعات اطلقوا عليها أحرفاً بحسب اسبقيتها (ا) و (ب) و (ج) و (س) و (X) A.B,C,X وذكروا مميزات كل حضارة حسب ما علموه على وجه التحقيق او الترجيح من آثارهم وخاصة من قبورهم .

المجموعة (ا) ٣٤٠٠ ــ ٢٧٢٠ ق.م.

سكنت هذه المجموعة في أراضي النوبة السفلى الحالية بالقرب من

النيل حيث كونت رواسب الطمى أرضاً صالحة للزراعة واحترف السكان الزراعةعلى هذه الاراضيوطابقت الاواني والمصنوعات التيعثر عليها الاواني والمصنوعات المصرية وطريقة دفن موتاهم هي نفس الطريقة المصرية ومنذ ذاك العهد اهتم قدماء المصريين بتلك الاراضي اما لمستلزمات الامن وطريق التجارة او للتعدين وقطع احجار الجرانيت ، ولا بد ان هناك بعض المقاومة لبعض التسرب المصري . والمصريون من جانبهم — لحماية طرقهم وضمان مستخرجات المعادن — لا بد وأن يسيّروا حملات تأديبية لاحباط المقاومة، وتدون لنا اخبار الاسرة الرابعة واحدة من تلك الحملات حيث قاد سنفرو حملة في بلاد تانحسى وقبض على ٧٠٠٠ اسير و ٢٠٠،٠٠٠ من الماشية والاغنام . والمبالغة في الارقام واضحة الا انها لها دلالتها على ان المصالح المصرية في تلك المنطقة ومقاومة المجموعة (أ) ادت الى مثل هذه الحملات التأديبية ولا بد ان توالي هذه الحملات قاد في نهايته الى ضعف هذه المجموعة التي لا قبل لها باستمرار المقاومة للجهاز الحربي لمدنية مثل مدنية قدماء المصريين .

المجموعة (ب) ٢٧٢٠ — ٢٢٧٠ ق.م.

ويبدو ان هناك مجموعة هبطت الى المنطقة ووجدت حضارة المجموعة (أ) في حالة من الضعف والانهيار ما جعل هذه المجموعة الجديدة (ب) تسيطر على المنطقة وتطعّم سكانها بدماء جديدة من الناحية الحربية ، ولا يعني هذا ان حضارتهم أرقى من المجموعة (أ) . والواقع ان حضارة هذه المجموعة وهي معاصرة للأسرة السادسة كانت صورة منحطة لحضارة المجموعة (أ) في أوانيهم وفي طريقة دفنهم التي اختلفت عن طريقة الدفن المصرية . غير ان الفراعنة ما زالوا في اهتمامهم بالمنطقة واصرارهم على تأمين التجارة والتعدين . وتوالت غاراتهم وازداد نفوذهم وتسربهم حتى صرنا نعثر على

نقوش بأسماء ملوك الاسرات في الدولة القديمة المصرية وظهرت وظيفة حاكم الجنوب وكشف هذه الحقيقة مقبرة اوني uni احد هـؤلاء الحكام في أبدوس ومن اعمال أوني التي دونتها النقوش شق مجاري وقنوات في الشلال الاول لتيسير الملاحة وبناء مراكب أحضر أخشابهـا رؤساء قبائـل ارثت وواوات ، واستمر بناء المراكب عاما كاملا وعند اتمامها نقلت كتل أحجار للمباني المصرية وتوالى تعيين الحكام للأمن ولضمان وصول منتجات التعدين ويذكر ان رؤساء النوبة قدموا فروض الولاء والطاعة .

ولم يكتف المصريون بالسيطرة على النوبة السفلى بـل فكروا في اكتشاف طرق التجارة والتوغل جنوبا ، وقد قام حرقوف وهو ابن لحاكم الفنتين بالقرب من أسوان بعدة رحلات تجارية في الجنـوب وفي احدى رحلاته توغل مسافة كبيرة امتدت الى أشهر ؛ ويرى أركل أن حرقوفا في هذه الرحلة ربما وصل الى كردفان او دارفور ولكنه مجرد استنتاج ، وقام احد الفراعنة في ذلك العهد برحلة ملكية الى حدوده الجنوبية ، وفي الفنتين قدمت قبائل النوبة لتأدية فروض الولاء ، ولم تكن لمصر في هذا العهـد — عهد الدولة القديمة — أهداف توسعية بالمعنى المعروف ولكنها تصر على تأمين التجارة واكتشاف طرق جديدة لها الى الجنوب وتأديب كل من تسول له نفسه بتعريض هذه التجارة او التعدين للخطر ، ولم يعرف في عهد الدولة القديمة ان تركت مصر حاميات حربية ، وانتهت الدولـة القديمة في مصر والعلاقات بينها وبين الاراضي الجنوبيـة لم تنعـد التجارة والتعديـن وتأمينهما .

المجموعة (ج) ٢٣٠٠ — ١٦٠٠ ق٠م٠

بدأت هذه المجموعة تظهر في النوبة منذ ان بدأ الانحلال يعتري جسم الدولة المصرية وتطور السودان بحضارته بعيداً عن المؤثرات والحمـلات

المصرية ، والعنصر الغالب في هذه المجموعة هو الليبي خاصه في النوبه السفلى . وعند قيام الدولة الوسطى في مصر بعد عصر الانحلال والتدهور وعندما انتعشت ورسخت أقدامها رنت بأبصارها نحو الجنوب لتؤمن طريق تجارتها ومعادنها ولم يقتصر فراعنة الدولة الوسطى بعلاقات تجارية ولكنهم بسطوا سيطرتهم على النوبة السفلى حتى الشلال الثاني على ما يبدو وأقاموا حصوناً لتحمي الطريق النهري من غارات بدو الصحراء او من تمرد يقوم به النوبيون ، وامتدت حضارتهم الى هذا الجزء الذي احتلوه ، وكما هو منتظر عند احتكاك حضارة راقية بحضارة أقل منها لا بد وأن تتأثر الاخيرة بها ، وظهر التأثر في تطور مقابرهم وفخارهم وأدوات زينتهم ، والآثار تدل على عمران خاصة في تربية الماشية والاغنام ويظهر ان تلك المنطقة الجرداء الآن كان بها من الخضرة وفرص الرعي أكثر مما عليه في العصور المتأخرة . وبهذا الاحتلال المصري خضع النوبيون للحكم الجديد وعاشوا في امن وسلام واختفت مقاومتهم متأثرين بالحضارة المصرية .

حضارة كرمة

اكتشف رايزنر في كرمة مباني بها كثير من الاواني والادوات بعضها يرجع الى الدولة القديمة وبعضها الى الدولة الوسطى اغلبيتها مصرية ومعها قليل من الاواني والفخار يظن انها صناعات محلية ، وفي المنطقة اكتشفت مقبرة طريقة الدفن فيها مختلفة عن طريقة الدفن المصرية بأن الميت يرقد على عنقريب وحوله نساؤه . واستنتج بأن هذا موقع حصن مصري ، والمقبرة بها حكام مصريون عدّلوا في طريقة دفنهم حسب تقاليد اهل البلاد بتأثير من نسائهم النوبيات . وهذا الزعم تدحضه عدة دلائل منها ان هذا الموقع يبعد كثيراً من آخر حصن للمصريين في الشمال ، ويستبعد ان تكون هذه المنطقة مقراً لحاكم الجنوب او نائب الملك ، واذا كانوا مصريين حقاً فهم

يتمسكون بطريقة دفنهم التقليدية ولا يرضون ان يدفنوا في ارض غير مصرية ، اما وجود الاواني والادوات المصرية فمرده الى ان اصحاب هذه الحضارة في كرمة متصلين عن طريق التجارة بمصر اتصالا وثيقا ، وان هذه الآثار في كرمة تشير الى مركز تجاري لتبادل السلع ولا بد لحكام المنطقة واثريائها ان يقتنوا عن طريق الشراء الاواني والادوات المصرية لأنها ادوات المدنية ، وهناك نقش في سمنه يؤكد انها هي آخر التحصينات المصرية الجنوبية ، فلوحة سنوسرت الثالث هناك تقول « هذه حدودي الجنوبية ... وان كل ولد من اولادي يحافظ على هذه الحدود الجنوبية لهو ولدي حقا ومن صلبي الابن الذي يحمي اباه حقا » . والمرجح ان سكان منطقة حضارة كرمة هم الاصل الذي يرجع اليه الكوشيون وان عملهم في التجارة مع مصر جعلهم يعيشون في رغد من العيش وتقدم في الحضارة والمدنية مقتفين اثر الحضارة المصرية لاتصالهم الوثيق بها .

تمصير السودان الشمالي

والظاهر ان حضارة كرمة امتدت الى الجنوب بازدهار التبادل التجاري حتى وصلت الشلال الرابع وربما تعدته جنوبا ، وفي مصر انهارت الدولة الوسطى وتلاها عصر الاضمحلال الثاني الى ان قيض لمصر احمس حيث طرد الهكسوس واسس اول اسرة في الدولة الحديثة ، دولة التوسع والفتوحات، ولا بد ان تمتد فتوحاتها الى جنوب طريق التجارة الى قلب افريقية ولا بد ان تكون السيطرة هذه المرة كاملة لم تقتصر على احتلال فقط بل تعدته الى تمصير كامل الى الشلال الرابع . وهناك آثار في كرقس باقليم الرباطاب تدل على امتداد النفوذ المصري في الدولة الحديثة الى تلك المنطقة ، وحوادث التوسع هذا والتمصير الكامل كشفت عنه الآثار في منطقة جبل البركل في العاصمة نبته (كريمة) ، وفي النقوش المصرية .

جهاز الحكم والادارة في كوش

كان يتربع على هرم الجهاز الاداري في منطقة كوش نائب الملك ، ويعرف بابن الملك كلقب تكريم وتشريف ، وليس ابنا حقيقيا ، وحتى في العصر الحديث نجد محمد علي والي مصر ، يخاطب حكام الاقاليم وحكمداري السودان بابننا فلان ، واختصاصات نائب الملك ، المقيم في نبتا واسعة ، فهو المشرف على طريق التجارة ، وهو قائد الجيش بما فيه من فرق الرماة النوبية ذات الشهرة الكبيرة ، لأنها برهنت في ظروف عدة على اهميتها بالنسبة لدفاع مصر — وهو المسؤول عن الضرائب زيادة على مستلزمات الحكم العادية ، وكان يختار لهذا المنصب الموثوق به من حاشية الملك ، ولنائب الملك معاونان رئيسيان ، احدهما لواوات وهي النوبة السفلى ، والثاني لكوش وهي النوبة العليا . واذا كان من الضروري ان كبار المعاونين لا بد وأن يكونوا من المصريين ، الا ان عملية استخدام الكوشيين في بعض المناصب أمر تحتمه الضرورة وخاصة في جباية الضرائب. وتنفيذاً لسياسة التمصير هذه ، كان ابناء الرؤساء والزعماء في اقاليم النوبة يفسح لهم المجال ويعينون في الوظائف بعد هذه التنشئة المصرية . والمصريون من كهنة وصناع وغيرهم يفدون لكوش ويختلطون بالسكان ويؤثرون فيهم ، وكلما شب جيل جديد فتح عيونه على مقومات حضارة مصر وأخذ بها وصار كالمصري قلبا وروحا .

اصل الكوشيين

اعتنق الكوشيون ديانة آمون ، وحتى عندما ضعفت ودخلت عليها البدع اصبحت كوش حامية هذه الديانة ، وتدخل فريق الرماة احياناً لمناصرة فريق ضد الآخر في النزاع الملكي في مصر ، ويتدخل نائب الملك

احياناً في تنصيب رئيس الكهنة ، وعندما تدخل الليبيون في حكم مصر . وقبل ان ندخل في الحقبة التي تم لحكام كوش غزو مصر وتوحيد القطرين فترة من الزمن يجدر بنا ان نقف قليلا لنبحث في أصل الكوشيين ونسرد الآراء المتعارضة في المسألة . فرايزنر الذي قام بالحفريات في منطقة نباتا ، وفي مروري يرى انهم من اصل ليبي ، فكما غزا فريق من الليبيين مصر عرّج فريق آخر على بلاد النوبة ، ويرى فريق اخر من الباحثين انهم من اصل مصري ، ويؤيدون حجتهم بوجود الطابع الحضاري المصري الكامل في ارض كوش ، وعرف ان نواب الملك الأوائل كانوا يختارون من اقرب المقربين لحاشية الملك في مصر لاهمية المنصب وتشتد المناقشة هذه بصدد اولئك الحكام الذين بدأوا بغزو مصر من نباتا عاصمة كوش ، ووحدوا القطرين ، ونحن هنا لسنا بصدد فترة قصيرة بل تناقش عهداً امتد الى قرون منذ تأسيس كوش في عاصمتها نباتا الى حين بداية الغزو لمصر من قاعدة عاصمة كوش .

فمهما كان اصل الطبقة الحاكمة في كوش فانها اصبحت سودانية نتيجة عملية التزاوج والتأثير بالاقاليم وانقطاع الصلة بالأصل ان كانت هناك صحة لهذا الزعم . فلا بد لهذه الطبقة ان تتأقلم وتتصل مصالحها بالشعب الذي تحكمه . وفي وقتنا الحاضر نعرف عائلات بل قبائل حضر اسلافها الى السودان قبل ثلاثمائة سنة او اكثر ولا يعرف نسلهم الحاضر وطنا غير السودان ، وان هم حاولوا عمليا الانتساب الى وطن آخر يفشلون . فحكام كوش حينما قادوا جيشا سودانيا لغزو مصر كانوا يفعلون ذلك بصفتهم دولة سودانية ذات اتصال وثيق بالحضارة المصرية من جميع نواحيها وسنرى انهم كانوا يرمون الى تخليص هذه الحضارة التي يرون انها حضارتهم هم من العناصر الاجنبية الدخيلة عليها .

بعنخي يفتح مصر ٧٥١ ــ ٦١٦ ق.م.

تقص لنا لوحة بعنخى التي سجل فيها انتصاراته في مصر على الليبيين القصة الكاملة بتفاصيلها لحوادث الفتح . وعثر على هذه اللوحة في أوائل هذا القرن في البركل ونقلت الى متحف القاهرة . غير اننا نعلم من لوحة اخرى ان اوّل حاكم كوشي استولى على مصر العليا هو كشتا ، الذي منح نفسه لقب ملك ، ولكنه لم يستخدم الألقاب الفرعونية . وعندما خلف بعنخى كشتا سمع عن سيطرة الليبيين بزعامة تفنخت على مصر ، ووصلته اصوات الاستغاثة ، فعزم عزماً اكيداً على تطهير الاراضي المصرية من الليبيين . وتقدم جيش بعث بعنخى به من نباتا نحو صعيد مصر ، فهزم اسطول الليبيين في طيبة العاصمة وفر الليبيون شمالا منهزمين وتتبعهم جيش نباتا واستخلص منهم الصعيد بكامله ووالوا فرارهم الى الوجه البحري ، ومع توالي تلك الانتصارات لم يرض بعنخى حيث ان العدو لم يقض عليه ، وخف بنفسه ليتولى القيادة ويحرز انتصارا عند مطلع العام الجديد ويحتفل بأمون في الكرنك ، وتم له ما اراد وحاصر الأشمونين واستولى عليها وساءه ان يرى الخيول هناك عجافا اذ كانت انسانيته تمتد الى الحيوان ، وعرف عنه حبه للخيل .

واصل بعنخى زحفه نحو الوجه البحري ، وعندما وصل الى مشارف مدينة منف وجدها منيعة الحصون ، وقاد الهجوم بنفسه من الناحية الشرقية المطلة على النيل والتي رأى في حصونها بعض الضعف ، وتم استيلاؤه عليها بعد ان اثار في نفوس جنوده الحماس ، وأنها مشيئة الاله ، وحذرهم من مهاجمة من يستسلم اذ عرف عنه النبل في مواجهة العدو ، فالمستسلم والضعيف والمريض والغافل لا يناله بأذى. وبعد سقوط هذه القلعة الحصينة استسلم امراء الوجه البحري ، وكان تفنخت العدو الاول يوالي الفرار بعد كل نصر يحرزه بعنخى ولجأ اخيرا الى جزيرة على النيل ولكن لا عاصم له

من ملك نباتا ، ورأى التسليم اخيرا وقبل بعنخى استرحامه وعفا عنه . وعندما ادى مهمته على خير ما كان يرجو ويأمل ، رجع الى عاصمته نباتا ليدون انتصاراته في اللوحة الشهيرة ، وأقامها في معبد آمون في البركل . واكتفى بعنخى بولاء الامراء وتعهدهم بدفع الجزية ، وما اقام سلطة مركزية في عاصمة من عواصم مصر . وما ان تأكد لتفنخت ان بعنخى توغل في بلاد النوبة راجعا لمقر ملكه الا ونسى تضرعه واستسلامه وخان العهد ، وفرض سلطته ونفوذه كملك على الوجه البحري ، وعندما توفي تولى ابنه من بعده . وتوفي بعنخى ايضاً وترك لخلفه مهمة استرجاع مصر من الليبيين .

شباكو ٧٠٧ ــ ٦٩٦

نقل شباكو العاصمة الى طيبة وأحرق خليفة تفنخت بعد ان ظفر به ولعله أخذ درسا من معاملة بعنخى الحسنة لتفنخت باطلاق سراحه ، وجعل لمصر حكومة مركزية باشرها بنفسه كملك لكوش ومصر . وظهرت في ذلك الوقت دولة الاشوريين في العراق بقوتها الرهيبة ، وزحفت غربا حيث استولت على مملكة اسرائيل ، وكان لملك كوش ومصر ان يحمي نفسه من تلك القوة الاسيوية الرهيبة بأن يحرض المملكات الصغيرة لتكون حاجزا بين آشور ومصر ، ولذلك حرضوا دولة يهودا الصغيرة ويبدو انه حالفها . وهاجم ملك آشور مملكة يهودا وحاصرها وخف شباكو لنجدتها بأن ارسل اخاه تهراقة على رأس جيش وهو صغير السن فاحتقر ملك آشور جيش كوش مخاطبا يهودا بأنها اعتمدت على قصبة مرضوضة ، وقبل ان يدخل الجيشان في معركة تغشى الطاعون في جيش آشور ورفع الحصار .

شبكتو ٦٩٨ – ٦٨٣ ق٠م٠

خلف شبكتو عمه شباكو وقوة آشور الرهيبة لا زالت تهدد أمن مصر وحكامها من الكوشيين ، ومات شبكتو قبل ان يدخل في معركة ضد آشور ولكن شعوره بخطرها جعله يوصي بالحكم لاخيه الاصغر تهراقا متخطيا من يكبرونه لكفاءته وقدرته لمجابهة الخطر الاشوري ، وكان قد اشركه في الحكم قبل وفاته ، واستبشر الناس خيراً بعهده حين فاض النهر الى درجة لم يبلغها من قبل والى الآن يستبشر الناس بالحاكم الذي يخضر الزرع ويدر الضرع في عهده . وزبض تهراقا في شرق الدلتا تاركا عاصمته في الصعيد ليكون على مقربة من منطقة الخطر في فلسطين ، واتخذ سياسة اثارة الدويلات الصغيرة كيهودا والفينيقيين ضد الاشوريين ومنناهـــم بالعون ، وثار ملك صيدا وتلاه ملك صور في فينيقيا ، ولكن آشور قضت على مقاومتهما قبل ان يخف تهراقا لنجدتهما . وما كان لاسرحدون ملك آشور الا وأن يتجه بقوته في ٦٧١ م الى مصر ، وقابله تهراقا على الحدود ، وانهزم ملك مصر وكوش وأسرت نساؤه واولاده ، وتقهقر هو الى عاصمته طيبة ليجمع وينظم جهازه الحربي من جديد واكتفى اسرحدون بهذا النصر ورجع لبلاده وترك مصر السفلى ليحتلها تهراقا . عاود أسرحدون التقـــدم نحو مصر بحملة جديدة ، ولكنه مات ونفذ ما نواه خليفته آشور بنيبال وتم له النصر على تهراقا في الدلتا ، وتابعه حـــين تقهقر نحـــو طيبة حيث احتلها ايضاً وعين امراء مصريين .

ثانوت آمون

تربع على العرش بعد موت تهراقا ثانوت آمون بن شبكتو وابن اخت تهراقا ، وكان اول عمل قام به هو ان يستعيد املاك اسلافه ، وينقذ مصر

من الاشوريين ، فقاد جيشاً زحف به نحو الشمال ووصل طيبة واحتلها حيث استقبل استقبالا رائعا كمنقذ وتحصن حكام الدلتا في مدنهم ودخل منف وخضع له بعض الحكام ، غير ان الاشوريين عاودوا هجومهم وتقهقر ثانوت آمون الى طيبة وتبعه الاشوريون هذه المرة اليها وخرج منها متوغلا في اقليم كوش حتى وصل عاصمته نباتا وكان آخر ملك من سلسلة ملوك مصر وكوش ، وامتد هذا العهد الى ٧٥ سنة حيث توحد القطران مصر والسودان تحت ملوك كوش .

كوش بعد التقهقر من مصر ٦٦٠ ق.م الى ٣٥٠ م

رجع الكوشيون الى عاصمتهم نبتا وباشروا مهام ملكهم باستقلال كامل لا تشوبه شائبة ، وهم منذ ان بدأوا غزو مصر للقضاء على سيطرة العنصر الليبي فيها اتخذوا لانفسهم لقب الملوك بعد ان كانوا نوابا للملك في مصر وتحت امره ولتعاقب العناصر الاجنبية على حكم مصر منذ ان غادرها الكوشيون اصبحت حضارة نبتة حامية الحضارة المصرية الفرعونية . فهم منذ ان تم تحصير بلادهم تحصيرا كاملا ، اخذوا بأسباب هذه الحضارة فدياناتهم ومعابدهم وطرق دفنهم وما اقتنوه من اواني وخزف ومعمارهم ، كلها اخذت من معين الحضارة المصرية الفرعونية . واستمروا عهدا طويلا منذ تقهقرهم الى بلادهم يمثلون هذه الحضارة في اجلى مظاهرها .

الاكتشافات الاثرية

وضحت معالم هذه الحضارة الرئيسية في حقبة الاستقلال هذا من الحفريات التي قام بها الاثريون في منطقة البركل وما جاورها وبقية اجزاء

كوش الشمالية في منطقة مروى القديمة (منطقة شندي ـ كيوشيه) وعلى رأسهم رايزنر ومن تبعوه . فاكتشفت المعابد والمباني الملكية وفوق كل ذلك القبور وهي كمقابر قدماء المصريون لا تحوي رفات الملوك بل تحوي تاريخهم ، ومن النقوش تمكن رايزنر ان يمدنا باسماء الملوك سواء كانوا في المنطقة الشمالية او الجنوبية في مروى ، ومن الاواني والخزف وتوابيتهم ومستوى العمارة تتبعوا فترات الارتقاء والتدهور ومن النقوش هنا وفي مصر عرفوا شيئا عن علاقات مملكة كوش بجيرانها ، وامدنا كذلك كتاب اليونان والرومان ببعض المعلومات ، ولكن المصدر الاصلي هو ما اكتشف في الحفريات . ومع ذلك لا تزال هناك بعض الحلقات المفقودة ولا تـزال آراء الباحثين تختلف في بعض النقاط والكلمة الاخيرة عن حضارة كوش ومروى لم تكتب بعد اذ كشفت حفريات هنزا الالماني في السنين الاخيرة بعض الحقائق التي اضفت ضوءاً على الغموض وناقضت بعض النتائج التي توصل اليها اسلافه من علماء الآثار ، والعمل متواصل من البعثات الاثرية الخارجية ، وستنزل مصلحة آثارنا وجامعتنا في الميدان في القريب العاجل ان شاء الله .

مركز الثقل ينتقل الى مروى

والمنطقة التي قامت فيها المدنيات الاولى السودانية تقع في اقليم دنقلا وحلفا وقد كانت كما هي عليه الآن محدودة المجال ، فالرقعة الزراعية شريط ضيق على الشواطىء وتتسع الى حد ما في بعض المناطق وتضيق احيانـا ويحتل الشاطىء في احيان اخرى الصخور . والظروف المحتملة في مثل هذه الاحوال هي انه بازدهار الحضارة وارتفاع مستوى المعيشة ، وبالزيادة الطبيعية في السكان تزداد احتياجات الانسان وتنمو قطعان مواشيه واغنامه وتصبح الحاجة ملحة لاطعام السكان والحيوان . وبديهي ان تتجه الانظار

لمجال حيوي يستوعب هذا الفائض من السكان وتجد القطعان المتكاثرة مراعي لعلفها . ففي الشمال بلاد النوبة السفلى وهي اسوأ حالا من النوبة العليا وفي الشرق والغرب صحاري لا تصلح لسكنى القوم المتحضرين ذوي المدنية العريقة ، وفي مجرى النيل الاعلى لنبتا يقع اقليم المناصير بصخوره وشلالاته وهو يشبه الى حد ما اقليم النوبة السفلى . ولم يبق امامهم الا تلك الاراضي التي تقع على مجرى النيل جنوبي ارض المناصير والرباطاب المجدبة . والوصول اليها عرفوه من قوافل التجارة التي تصل هذه الاراضي باقليم دنقلا عبر صحراء بيوضة . وبدأ تسلل تدريجي الى هذه الاراضي وأسس فرع لحكومة كوش في هذا الاقليم واتخذ عاصمة له مروى القديمة بالقرب من قرية البجراوية غير بعيد عن كبوشية الحالية .

مميزات اقليم مروى

واقليم مروى القديمة هذا والذي اصبح مقرا لمملكة كوش اخيرا وانتقلت العاصمة اليه يمتاز باتساع رقعة اراضيه التي يرويها النيل وامتداد هذه الاراضي الى الجنوب مسافات بعيدة وفوق ذلك فالاراضي التي تقع على شرقي النيل وغربه وخاصة الشرقية تهطل فيها امطار بكميات تنبت العشب للمراعي . وقد تصلح للزراعة المطرية وتنبت من الاشجار ما يصلح لصناعة المراكب وللوقود ، وتمر عليها القوافل التجارية متجهة للشرق حتى سواحل البحر الاحمر وغربا لكردفان ودارفور وربما لابعد منها ، وشمالا تصلها بالجزء الشمالي من المملكة ، وجنوبا بارض الرقيق وحاصلات المناطق ذات الامطار الغزيرة . وامتازت مروى بصناعة الحديد حيث توجد الاحجار التي تحوي المادة الخام له ، وحيث خشب الوقود لصهره متوفر ، وربما كانت بداية هذه الصناعة منذ عهد تهراقا حيث تبين له ان قوة الاشوريين الكاسحة تعتمد في الدرجة الاولى على الاسلحة المصنوعة من الحديد ،

وكانت آنذاك بمثابة سلاح جديد يجعل من القوة التي تستخدمه لاول مرة ميزة حربية لا تقاوم وآثار هذه الصناعة اكتشفت من الاواني والاسلحة التي اكتشفت والتي امتد اثرها على اجزاء اخرى من القارة الافريقية ومن التلال التي لا تزال ظاهرة من خبث الحديد (Slag) وهذه الحقيقة عند اكتشافها جعلت البروفسير سايس يطلق على مروى برمنجهام السودان . تدهورت حضارة مروى القديمة تدريجيا لاسباب لم تتبينها حتى لقيت الضربة القاضية على يد عيزانا ملك اكسوم الحبشية حسب ما دونتها لوحاتهم .

المرحلة الاولى للمسيحية

تلت فترة انقضاء الحضارة المروية حقبة غموض لم يتبين منها شيء نسبة لصمت المصادر عنها ، وتجدد ذكر السودان في المصادر عندما انتشرت المسيحية خاصة في مصر . وتحدثنا الروايات عن وجود ثلاث دول نوبية ، الاولى في الشمال وتسمى نوباديا وعاصمتها فرس ، والثانية في اقليم دنقلا وتدعى المقرة وعاصمتها دنقلة العجوز ، والثالثة علوة وعاصمتها سوبا جنوبي الخرطوم بقليل . وكما حدث في العهود السابقة وفي العهود التالية فان احداث مصر لا بد وان تؤثر في حضارة السودان . فالمسيحية دخلت مصر في وقت مبكر وناهضتها امبراطورية الرومان ، كما ناهضوها في بقية اجزاء الامبراطورية ومصر من بينها وتعرض من اعتنقوا المسيحية الى الاضطهاد وتحت وطأة هذه المقاومة الرسمية هجر بعض المتحمسين للدين الجديد اوطانهم في الوجه البحري ، ولجأوا الى الصعيد ، وبعضهم الى الصحراء ، وتعمق بعضهم اكثر الى بلاد النوبة وكان تأثيرهم على من اختلطوا بهم من النوبيين نتيجته الطبيعية اعتناق بعضهم المسيحية ، ولاسيما ان دياناتهم القديمة بما فيها من ديانات الحضارة المصرية القديمة قد فقدت

فعاليتها وجاذبيتها . والاتصال التجاري بين السودان ومصر وتردد النوبيين على مصر لم ينقطع . وحتى عندما خفت حدة الاضطهاد للمسيحيين في مصر منذ ايام الامبراطور قسطنطين وزالت نهائيا فيما بعد عندما اصبحت المسيحية دين الدولة الرسمي ظلت البعثات التبشيرية كأفراد توالي نشاطها في بلاد النوبة ، ويبرز لنا في هذه المرحلة اسم ثيودور اسقف فيلة وأسوان حيث عاش كرجل دين في تلك المنطقة نحو خمسين عاما وتعرف وصادق زعماء النوبيين فيما وراء الشلال الاول وتردد على زيارة بلادهم وقام من بين النوبيين زعيم يدعى سلكو ، تحمس للدين الجديد ، ولا غرابة بعد هذا اذا ما انتشرت المسيحية على الاقل في ذلك الجزء الاسفل الموالي لاسوان من الاراضي النوبية .

المرحلة الثانية

ونشطت حركة التبشير واخذت طابعا رسميا في عهد الامبراطور جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) عندما قضى على كل معالم الوثنية في مصر وأغلق معبد فيلة الوثني بالقرب من اسوان حيث كان يتردد عليه البلميين سكان الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الاحمر وسعى لان يدخل البلميين والنوبيين في المسيحية لتتم له السيطرة على أطراف امبراطوريته ولكن الصراع المذهبي على طبيعة المسيح جعل الكنيسة المصرية التي تنادي بالطبيعة الواحدة للمسيح تدخل في سباق مع انصار الطبيعتين يؤيدهم الامبراطور جستنيان . غير ان الكنيسة القبطية وجدت في الامبراطورة ثيودورا نصيرا ومؤيدا لها وبالاتفاق مع بطريرك الكنيسة القبطية المنفي ثيودوسيوس دبرت حملة تبشيرية لبلاد النوبة قام بها اثنان من رجال هذا البطريرك وكانا معه في المنفى وهما يوليان ولونجينوس ، ويروي لنا قصة هذا السباق في بلاد النوبة يوحنا الافسوسي وهو على مذهب الكنيسة

القبطية ولذا لا بد من أخذ سرده لتلك القصة بالتحفظ . ذهب في أول الامر يوليان الى مملكة نوباديا لتأييد مذهب الكنيسة القبطية هناك . وما كان لجستنيان وهو يناهض هذا المذهب الا ان يبعث برجال آخرين من رجال المذهب الملكاني المنادي بالطبيعتين لمناهضة بعثة جوليان وعرقلة أعمالها التبشيرية . وفطنت ثيودورا لهذا الامر وبعثت برسالة الى حاكم مصر العلياتهدده ان لم يحجز بعثة الامبراطور ويمكن لبعثة جوليان بالسير ، ويبدو ان نفوذ ثيودورا في الامبراطورية كان كبيرا لدرجة ان هذا الحاكم نفذ أوامرها فعلا ضد بعثة الامبراطور نفسه . فادعى عدم وجود وسائل النقل لبعثة الملكانية حتى اذا ما حضر يوليان جهز له قافلة حملته الى نوباديا بصحبة ثيودور أسقف فيلة الذي مهد لقبول البعثة اليعقوبية (القبطية) باتصاله الطويل ونفوذه على النوبيين كما قدمنا ، ووجدت البعثة كل اكرام من ملك النوباديين وشعبه . وعندما اتت بعثة المذهب الملكاني وجدت الطريق مقفولا امامها ولم تنجح في زعزعة عقيدة النوبيين على مذهب كنيسة اليعاقبة وبعد ان بقي نحو سنتين في بلاد النوبة رجع يوليان وتوفي بعد ذلك .

وادرك البطريرك المنفي (تيودوسيوس) ان لا بد من مواصلة تبشيره في بلاد النوبة وباستشارته ، عينت ثيودورا لونجينيوس أسقفا لبلاد النوبة ووصلها في ٥٦٩ م بعد ان تنكر واحتضنه النوبيون كمعلم وكمرشد بدلا من معلمهم جوليان المتوفي ومرشدهم الاول ثيودور كبير السن . والذي ظل في أبرشيته في فيلة لا يغادرها . وبقي خمس سنوات وغادرهم الى مصر ليقوم بواجبه في انتخاب بطريرك يعقوبي وحزنوا لفراقه ، وكانوا يودون لو بقي معهم يعلمهم ويرشدهم . وقام لونجينيوس برحلة ثانية لبلاد النوبة سنة ٥٨٠ م حيث وصل نوباديا اولا ثم الى علوة في السودان الاوسط استجابة لطلب ملك علوة المتكرر لانهم كما يبدو كانوا في حالة فراغ روحي وترامى الى اسماعهم ما قام به المبشرون في مملكة نوباديا وأرادوا اعتناق

هذا الدين الجديد ذي الحيوية بديلا عن دياناتهم الوثنية المتحجرة ويظهر ان حدة النزاع بين الكنيستين لم تفتر فأصدر البطريرك الملكاني حرمانا من الكنيسة للونجينيوس وأصدر صورة من هذا الحرمان لملك نوباديا غير ان النوباديين تعمقت فيهم العقيدة اليعقوبية فلم يأبهوا لذلك .

رحلة لونجينيوس الى علوة

وحين علم رجال الكنيسة الملكانية بعزم لونجينيوس للسفر الى علوة بعثوا برسلهم قبله يخبرونهم بهرطقة ذلك الاسقف وبطرده من الكنيسة المسيحية غير ان ملك علوة عملا بالمعلومات التي وصلته من نوباديا طردهم ولم يستمع لنصحهم ولن يقبل سوى لونجينيوس الذي ذاعت شهرته في مملكة نوباديا . ويبدو ان مملكة مقرة في هذه الحقبة قد اعتنقت المسيحية على المذهب الملكاني او انها كانت حليفة لهذه الكنيسة او انها كانت في عداوة مع جاراتها نوباديا وعلوة . وعلى ذلك كان على الاسقف لونجينيوس ان يتفادى طريق النيل حتى لا يلحق به ملوك مقرة اذى ودبر له ملك نوباديا طريقا في ارض البجة ويتضح لنا ذلك من رسالة بعث بها ملك نوباديا الى الاسكندرية يقول فيها : وبسبب مؤامرات ملك مقرة الشهيرة فاني قد ارسلت ابي لونجينيوس الى ملك البجة حتى يدله على طريق آخر بعيد عن وادي النيل في جبال البحر الاحمر . ومع ذلك فان ملك مقرة سمع بذلك ايضا وأرسل عيونه يبحثون عن ابي في كل مكان ، في السهول والجبال حتى البحر الاحمر يريدون وضع ايديهم عليه ويوقفون بذلك اعماله الصالحة في سبيل الله . ويبدو ان ملك البجة انذاك ان لم يكن معتنقا للمسيحية فانه كان على صلات ودية مع ملك نوباديا . وفي هذه الرحلة التي استمرت نحو سبعة اشهر لاقى الاسقف صعابا وأهوالا عظيمة هو ومرافقوه ، ووصل الى ارض علوة وتلقاه ملكها بالترحاب ويقول « وبشرنا الملك وعمدناه مع كل

اسرته وحاشيته ونبلائه ، وكان عمل الرب ينمو كل يوم » وبذلك اصبحت علوة مثل نوباديا قبلها يعقوبية وكانت مقرة ملكانية كما يبدو اذ يعتقد ان بعثة جوستينيان التي فشلت في نوباديا ربما اتخذت طريقها جنوبا وتم لها تحويل مقرة الى المسيحية على المذهب الملكاني .

مملكتا مقرة وعلوة

ولا تير لنا المصادر ما حدث بعد هذا حتى اذا ما جاء الفتح الاسلامي لمصر وقضى على نفوذ الملكانيين الذين تؤيدهم بيزنطية اصبحت الكنيسة القبطية صاحبة النفوذ الوحيد في مصر وبلاد النوبة ، ويبدو ان مقرة عندما زال نفوذ الملكانيين في مصر وانقطع مصدر إرشادهم الروحي تحولوا الى المذهب اليعقوبي حيث اتصلوا بالكنيسة القبطية صاحبة السيطرة على الدين المسيحي وزال اسم مملكة نوباديا في المصادر العربية التي تعرضت لممالك النوبة واصبحت لا تذكر الا مملكة المقرة وعاصمتها دنقلا وعلوة وعاصمتها سوبة ، ويبدو انه تم اندماج نوباديا في مقرة . وكل هذه القصص التي تسرد دخول المسيحية في السودان تؤكد ان التحول الى المسيحية بدأ بالملوك وطبقة الحكام والحاشية وان تحول السكان انفسهم لا بد وان يكون تدريجيا وان فهمهم للمسيحية لم يكن على مستوى الحجج اللاهوتية والمنافسات المنطقية الفلسفية العميقة وربما كان انتشارها وفهمها على مستوى فوق المتوسط في الاراضي الشمالية أكثر منه في اواسط السودان واجزاء علوة العليا نظرا لقرب الاجزاء الشمالية من مصر واتصالها بالمصريين وتردد القسس والرهبان والاقباط عليها ، ووجود بعض العادات الوثنية التي تتعارض مع المسيحية نوعا ما دليل على عدم تفهمهم لها تفهما صحيحا . وهذا يفسر لنا ان دولة مقرة في الشمال قاومت التسرب العربي الاسلامي مقاومة شديدة ، ولولا كما سيظهر فيما يلي من فصول ، المنافسات

الشخصية من افراد البيت المالك لما نجحت حملات الدول الاسلامية في مصر على بلاد النوبة ، ومع ذلك كان تسرب الاسلام بطيئا نسبة لتلك المقاومة . اما علوة فلم يكن فهم سكانها عميقا للديانة المسيحية ولانهم في اماكن نائية انقطع وصول الاساقفة لبلادهم ولذا نجدهم في حالة استعداد لقبول المسلمين في بلادهم ، وفي حالة تخوف من سطوة الدول الاسلامية .

حضارة النوبة المسيحية

كان السودان بمملكتيه في العهد المسيحي يحكم على اساس اقليمي اذ لم تكن القبيلة بمدلولها الحالي لها وجود قبل دخول العرب في السودان ، ومع وجود السلطة المركزية وعلى رأسها الملك يحكم الاقاليم ملوك صغار يدينون للملك الكبير بالطاعة والولاء ، وكان للملوك كل شارات الملك من سرير وتاج مرصع بالاحجار الكريمة ومظلة يحملها اتباعه فوق رأسه في تحركاته ، ونظام العرش يسير على نظام الامومة ، فابن الاخت يرث العرش من خاله كما يبدو ، الا انه في بعض الحالات يروى لنا عن ابناء خلفوا آبائهم. وهذا الاضطراب في نظام الوراثة مسؤول عن تلك المنافسات في افراد البيت المالك والتي تنشأ من وقت لآخر . ويظهر من الروايات ان صاحب الجبل في فرس كان اعظم الملوك حكام الاقاليم. وتمثله الصورة التي وجدت في كنيسة صاحب الجبل يلبس عمامة يبرز فيها قرنان وهذا يدل على ان الطاقية ام قرنين التي استخدمت في عهد الفونج كدليل على السلطة مأخوذة من العهد المسيحي. ويبدو ان الملك يمتلك كل الاراضي ويعتبر رعاياه من عبيده لا حق لهم في امتلاكها او التصرف فيها بالبيع والشراء ، وهذا يقودنا الى الاستنتاج بأن المجتمع يتألف من طبقتين : الحكام والشعب ، وأن العلاقة بينهما هي علاقة السيد والمسود . والسودانيون يذكرون لفظة العنج (الانج) كثيرا ويطلقونها على الشعوب التي كانت تقطن البلاد قبل دخول العرب خاصة

في السودان الاوسط ، وفي كردفان والصورة التي تبدو في اذهانهم عن هؤلاء القوم هي انهم اصحاب حضارة راقية بدليل الحفائر الموجودة الآن في بعض الاماكن ويشيرون اليها بأنها للعنج ، وقد رأيت سلسلة منها في المرحلة الثالثة من مشروع المناقل قبل ان تخطط للزراعة ولا يتضح لنا فيما اذا كانت ترجع للعهد المسيحي او العهد المروي .